أنطون شمّاس*

فلسطين خارج الخريطة:

حكاية جواز السفر

هذه علبة دمشقية من الموزاييك، أي الخشب المُطعّم بالصدف، اشتراها شخص يُدعى حنا الشمّاس في بيروت، في أواخر الثلاثينيات من القرن الماضي، كهدية خطوبة لصبيّة اسمها إيلين بيطار، أصبحت فيما بعد والدتي. فقد توّجتْ هذه العلبة المُصدّفة ثلاثة أعوام من موازييك التودد والملاحقة والغرام والطلعات والنزلات، بين قرية صغيرة في شمال فلسطين تُدعى فسوطة، حيث وُلد حنا الشمّاس في سنة ١٩٠٨، وبيروت التي انتقلت إليها عائلة البنت اليتيمة إيلين بيطار من مدينة صور جنوباً حيث وُلدت إيلين في سنة ١٩٢٠. أمّا القران فعُقد في كانون الثاني / يناير ١٩٤٠، في عزّ الشتاء اللبناني الذي لا يعرف الرحمة. ثم أخذ حنا الشماس عروسه وعاد إلى قريته، قاطعاً الحدود اللبنانية ـ الفلسطينيّة معها بمعونة جَمَلين كان أقرباء والدي وأصدقاؤه قد جاؤوا بهما لملاقاة العروسين في بلدة رميش اللبنانية، إلى الشمال الشرقي من فسوطة. وكانت هذه العلبة الدمشقية

* كاتب ومترجم وأكاديمي فلسطيني.

المنارة للاستشارات
www.mana

المُصدّفة من ضمن أشياء "الجهاز" الكثيرة التي حملتها قافلة العروسين المتواضعة، ولعلها كانت أثمن ما فيها، إذ احتوت على "صيغة العروس"، أي حُليّها، هديّة العرس من أمها الأرملة. بعد ذلك بستة أعوام سيتسلل لصّ محلّي من فسوطة إلى بيتنا الذي كان خالياً في تلك الساعة، ويسرق هذه الحُليّ، وستبقى هويّته سراً عائلياً لا يجوز البوح به على مدى السنوات. وبعد ذلك بعامين، أي في سنة ١٩٤٨ المشؤومة، "راحت فلسطين". وبعد أن نُهبت فلسطين بعامين، وُلدتُ أنا كاتب هذه السطور في فسوطة، لكن الأمر لم يأتِ بكثير من العزاء على ضياع حُليّ الزواج، فكم بالحريّ على ضياع وطن بكامله.

في طفولتي كانت العلبة، أو تكاد، محظورة علينا، فعلاوة على العلب المخملية الصغيرة، والتي تلطّف اللص بأريحية غير معهودة بتركها فارغة داخلها، كانت العلبة المُصدّفة التي أصبح اسمها "علبة الخطبة"، تحتوي أيضاً على وثائق عائلية ثمينة، وعلى أشياء أُخرى تخصّ أبي: سكّين الجيب بمقبضها القرنيّ الأسود؛ أدوات الحلاقة؛ ساعة الجيب الفضّية المعطوبة؛ مفكّرته ذات الغلاف الجلدي الأحمر الحائل، والذي كَمَن في داخله متربصاً بي موضوعُ هذه السطور ـ جواز سفر أبي. وهكذا، فالعلب الفارغة كما تعلمون لا تُطيق البقاء فارغة إلى أمد طويل، فهي تستدعي الأشياء إلى داخلها لملء فراغها، ليس بمادّيتها فقط، بل أيضاً بالحكايات التي تحملها هذه الأشياء معها. وفي المقابل، فإن العلب والصناديق تمنح الأشياء وحكاياتها مأوى وحماية.

قلتُ إن علبة الخطوبة المصدّفة كانت محظورة علينا أو تكاد. لأننا معشرَ الإخوة والأخوات وجدنا ذلك الحظر أصعب من تحمّلنا، ووجدنا أن العلبة المقفلة أكثرَ إغواء من أن نتركها وشأنها، أكثرَ إغواء من أن نتحمل البعد عن الحيّز الأليف المصون كالسرّ والذي تهبُه لنا العلب عادة؛ الحيزِ المؤجّل الذي تضعه العلب تحت تصرفنا حين يأخذ منا التردد كل مأخذ أو حين نكون، شأنَ الحكاية، غير جاهزين بعد لهجر دفء الأعشاش، أو أهشّ من أن نواجه فضاء العالم الخارجي، العالم اللاشخصي البارد المشحون بالتحدي.

"إن هذه التحف المركبة التي أبدعها حرفيون مَهَرة"، يقول غاستون باشلار في **جماليات المكان**، بترجمة غالب هلسا مع بعض التصرف (بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، ٢٠٠٠)، "هي شواهد شديدة الوضوح على الحاجة للسرّية، على الحاسة الحدسية لأماكن الإخفاء. إن المسألة

المنارة للاستشارات
www.mana

هنا ليست مجرد المحافظة الشديدة على أملاكنا، فليس ثمّة قفل يستطيع مقاومة العنف المطلق" (**جماليات المكان**، ص ٩٤). وقد تحدث ريلكه عن المتعة التي شعر بها حين رأى صندوقاً يغلق بشكل محكم: "غطاء الصندوق الذي في حالة جيدة، حوافّه سليمة وغير مهشمة، لا رغبة لديه سوى أن يكون فوق صندوقه" (المصدر نفسه، ص٩٥). ثم يورد باشلار مثلاً شائعاً يصفه بالـ "متفائل"، قد تكون التنويعات العربية المحكية عليه معروفة . "لكل قدر غطاؤه". فالعالم، يواصل باشلار، "سيكون أفضل حالاً لو أن القدور وأغطيتها حافظ بعضها على بعض."

ولكننا نعلم أن ذلك مستحيل.

غطاء هذه العلبة المصدّفة، وهو شيء تصعب ملاحظته في هذه الصورة، شابَهُ الاعوجاج وتساقطت بعض تعشيقاته، فكان ذلك سبباً كافياً في نظري لاستيلائي الماكر عليه في عهد مبكر، الأمر الذي أثار استياء إخوتي وأخواتي الذين شككوا، وبصدق، في حقّي القانوني والأخلاقي، كأصغر الإخوة، في أن أكون وريث هذا الكنز. كنت قد انتقلت إلى القدس في أواخر الستينيات، وكنت أتردد بين الحين والآخر على دكان نجار إسرائيلي في القدس الغربية تخصص ببيع الأثاث القديم، أي "الأنتيكا" كما كنا نسمّيه، من أديرة في المناطق الفلسطينية المحتلة منذ سنة ١٩٦٧، وخصوصاً من منطقة بيت لحم وبيت جالا. وكنت قد استشرت حرفيّاً فلسطينياً يعمل لديه بأمر غطاء هذه العلبة التي لم تكن استقرت بعد في حيازتي ـ أن الغطاء بدأ بإظهار إشارات عدم الارتياح، وأن زواياه أخذت بالنفور قليلاً من جزء العلبة السفلي ـ ولم أكن أعلم يومها أن ريلكه بشخصه كان سيمتعض من أداء هذا الغطاء. وقال الحرفيّ الفلسطيني إن ذلك هو ما يحدث عادة للعلب والصناديق والناس حين تهاجر إلى مناخ مختلف، شأنها شأن الآلات الموسيقية التي يتأثر خشبها بصورة ملحوظة من تقلبات الطقس. وحقاً، كانت العائلة قد غادرت قرية فسوطة المرتفعة ذات المناخ الجاف، وانتقلت في مطلع الستينيات إلى مدينة حيفا الساحلية ذات المناخ الغارق في الرطوبة والتلوث، وأرجح الظن أن العلبة المصدّفة لم يعجبها الأمر قط. واقترح الحرفيّ أن أريه العلبة لعله يستطيع أن يقترح طريقة للعلاج. وهكذا تعلّلت باقتراح الحرفيّ وترجمتُه لمصلحتي، وأخذت العلبة إلى القدس بحجة المعالجة المزعومة، وأصبحت العلبة في حيازتي منذ ذلك الحين. وكما تلاحظون في الصورة، فإن الغطاء شفي تماماً من التوعكات المناخية في الشتات خفيف الوطأة، غير الفلسطيني، في آن آربور، مشيغان، حيث أقيم منذ سنة ١٩٨٧.

هكذا بدت والدتي في الأربعينيات، قبل سرقة جواهرها وسرقة فلسطين. لقد جاوزت الآن التسعين،

المنارة للاستشارات
www.mana

لكنها تذكّرنا دائماً، شأن فلسطين، بأنه لزاماً علينا أن نتذكرها كما تبدو في هذه الصورة بالذات، لأنها (الصورة)، بين الصور جميعها، أكثرها إيثاراً لديها، فضلاً عن أنها التُقطت قبل اختفاء الحليّ بوقت قصير. فتلك الأشياء المنهوبة التي لا تزال أطيافها الافتراضية محفورة في ذاكرتها، تركت وراءها آثاراً قليلة؛ آثاراً تشهد على وجود الأشياء في الماضي البعيد. وهذا أثر من تلك الآثار:

صورة قرط من اللؤلؤ هي كل ما تبقّى من العلبة الفارغة. أثر فيرميريّ، هو الإثبات الوحيد على أن دالاًّ معيّناً كان موجوداً ذات يوم، دالاًّ ترك وراءه

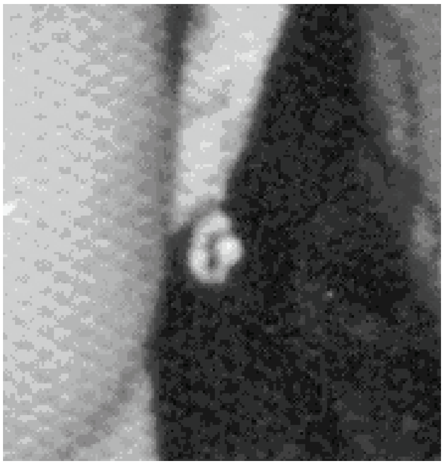

أثراً قبل أن يختفي؛
أثراً لا يستطيع
اللصوص أن ينهبوه،
ملتصقاً بشحمة الأذن
التي ما زالت تستطيع أن تتذكر.

وكان في داخل العلبة المصدّفة شيء آخر، وبعكس الأشياء الأُخرى المنهوبة ما زال يمكن لمسه واستنشاق رائحته، لكنه، شأن القرط اللؤلؤي، فقد مدلوله أيضاً.

إنه شيء ما زال في استطاعته أن يتباهى بصورته ومظهره، أن يتباهى بماديّته المحسوسة الملموسة، ويوم تختفي جميع الذكريات المتعلقة به، فإن صورته هذه ستواصل طرح السؤال، شأن الصور والمظاهر جميعها، حين نرغب في الاستماع. ما الذي تودّ هذه الصورة أن تقوله لنا إذاً؟

الكلمات الإنجليزية على اليمين ـ British Passport
فوق الشعار الملكي البريطاني ـ Dieu et Mon Droit، وكلمة Palestine تحته.
الكلمات العربية "جواز السفر" و"حكومة فلسطين"، وما يقابلها باللغة العبرية تحت الكلمات العربية:"פספורט" و "ממשלת פלשתינה (א"י).
ما الذي تودّ هذه الكلمات أن تقوله، إذا كان لديها أصلاً ما تقوله؟

إنه جواز السفر رقم ٤٥٨٥٦، "حُرّر في

المنارة للاستشارات
www.mana

القدس" في ٥ تشرين الأول / أكتوبر (لاحظوا أن التاريخ مثبتٌ بالإنجليزية فقط) سنة ١٩٣٢، أي ١٠ أعوام بعد إعلان الانتداب البريطاني على فلسطين، و١٦ عاماً قبل النكبة الفلسطينية في سنة ١٩٤٨، لشخص يدعى حنا جبران الشمّاس، وفقاً للمادة الأولى من قانون الجنسية الفلسطينية لسنة ١٩٢٥:

"جواز السفر / صادر من المندوب السامي لصاحب الجلالة البريطانية في فلسطين / نطلب ونرجو، باسم جلالته، كل مَن له اختصاص أن يسمح لحامل هذا الجواز بحرّية / المرور من غير توانٍ ومع تذليل كل صعوبة في سبيله وأن يبذل له كل ما يحتاج إليه من / مساعدة ورعاية."

التوقيع . آرثر ووكوب

المندوب السامي

دعوني أقدّم لكم إذاً السير آرثر غرنفلد ووكوب، المندوب السامي البريطاني في فلسطين وشرق الأردن، وهو يسير متخايلاً في شوارع القدس بعيد وصوله إليها في ٢٠ تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٣١. وكان السير ووكوب، قبل أن ينال هذا التعيين الإمبراطوري الرفيع المستوى، قد خدم وحارب من أجل التاج في جنوب إفريقيا والهند وبلاد ما بين النهرين وألمانيا، وقبل عامين من التقاط هذه الصورة كان يخدم التاج في إيرلندا الشمالية.

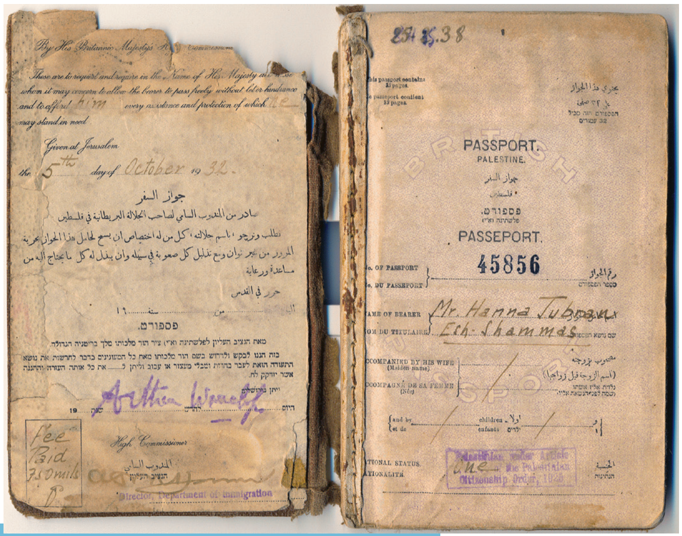
By His Britannic Majesty's High Commissioner

These are to request and require in the Name of His Majesty all those whom it may concern to allow the bearer to pass freely without let or hindrance and to afford him every assistance and protection of which he may stand in need

Given at Jerusalem the 5th day of October 1932.

جواز السفر

صادر من المندوب السامي لصاحب الجلالة البريطانية في فلسطين

نطلب ونرجو، باسم جلالته، كل من له اختصاص ان يسمح لحامل هذا الجواز بحرية المرور من غير توان ومع تذليل كل صعوبة في سبيله وان يبذل له كل ما يحتاج اليه من مساعدة ورعاية

حرر في القدس

פספורט.

Arthur Wauchope

High Commissioner

المندوب السامي

Fee Paid 750 mils

Director, Department of Immigration

25.38

This passport contains 32 pages.

Ce passeport contient 32 pages.

يحوي هذا الجواز على ٣٢ صفحة

PASSPORT.

PALESTINE.

جواز السفر

فلسطين

פספורט.

PASSEPORT.

No. of Passport / No. du Passeport: 45856

رقم الجواز

Name of Bearer / Nom du Titulaire: Mr. Hanna Jubran Esh-Shammas

Accompanied by his wife (Maiden name) / Accompagné de sa femme (Née)

مصحوب بزوجته (اسم الزوجة قبل زواجها)

and by / et de — children / enfants — أولاد

National Status / Nationalité: Palestinian under Article One of the Palestinian Citizenship Order, 1925

الجنسية

بعض المصادر تقول لنا إنه "في هذا المنصب [أي منصب المندوب السامي في فلسطين] كان يُعتبر من أكبر المتحمسين للأشغال العامة وبرامج الهندسة المدنية، ولكنه انتُقد لأنه لم يتعامل بالصرامة المطلوبة مع العرب في المراحل الأولى لثورتهم [١٩٣٦–١٩٣٩]. وقد خلفه في منصبه في سنة ١٩٣٨ السير هارولد ماكمايكل"، الذي صار المندوب السامي في فلسطين حتى سنة ١٩٤٤.

السير ووكوب، بعد عام واحد

المنارة للاستشارات
www.mana

حرر في القدس
في .... من .... سنة ١٩
פספורט.
מאת הנציב העליון לפלשתינה (א״י) ציר הוד מלכותו מלך בריטניה הגדולה.
בזה הננו לבקש ולדרוש בשם הוד מלכותו מאת כל המעונינים בדבר לחרשות את נושא התעודה הזאת לעבר בחרות ומבלי מעצור או עכוב וליתן ל___ את כל אותה העזרה וההגנה אשר יזדקק לה.
ייתן בירושלים
היום .... לחדש .... שנה 19
Fee Paid 750 mils
High Commissioner
المندوب السامي
הנציב העליון
Director, Department of Immigration

من تولّيه هذا المنصب السامي، وفي ٥ تشرين الأول / أكتوبر ١٩٣٢ على وجه الدقة، وعلى الرغم من أشغاله الإمبراطورية اليومية الكثيرة (التي لا تبدو طبعاً في هذه الصورة)، تلطّف بأن وجد لديه الوقت الملائم كي يدمغ تاريخ عائلتي المتواضع بشارته الرفيعة، إذ وضع ختمه ذا الشأن على الغلاف الداخلي لجواز السفر الفلسطيني الذي استصدره والدي، ليس بسبب كونه متساهلاً مع العرب في فلسطين، كما اتهمه منتقدوه، وإنما، ببساطة، لكون ذلك هو العمل الذي أُنيط به تنفيذه: أن يسم الأوراق الثبوتية التي في حيازة أحد رعايا التاج بشارة السلطة الإمبراطورية...

... وبذلك يكون قد وقّع مع رعيته ميثاقاً ذا اتجاه واحد تكون طبيعته وبنوده واضحة للتاج فقط. فكل ما أراد أبي أن يفعله كان أن يعبر، قانونياً، الحدود الفلسطينية ـ اللبنانيّة من خلال المعبر الحدودي في رأس الناقورة، على ساحل البحر الأبيض المتوسط، كي يزور أقاربه في مدينة زحلة اللبنانية، ولذلك، لا أعتقد أنه أصرّ على اكتناه طبيعة ذلك الميثاق، واكتفى من الغنيمة بالإياب، أي أنه شعر بالسعادة لمجرد حصوله على وثيقة السفر الثمينة هذه.

«IN–OUT»
Le poste-frontière de Nakoura entre la Palestine et le Liban (anonyme, vers 1940)

وكي ينفّذ ما تتطلبه الاتفاقية من طرفه، أضاف والدي توقيعه، كما ينص القانون، في الخانة التي خُصصت لذلك، على الصفحة الثالثة من صفحات الجواز، تحت صورته الشمسية، وهي صورة التُقطت له في أعقاب مرض لازمه وأنهكه طويلاً، كما يذكر الفولكلور العائلي. وهذا يفسر الشحوب في الوجه الذي يبدو وقد أرهقته الأسفار التي سيقوم بها في

المنارة للاستشارات
www.mana

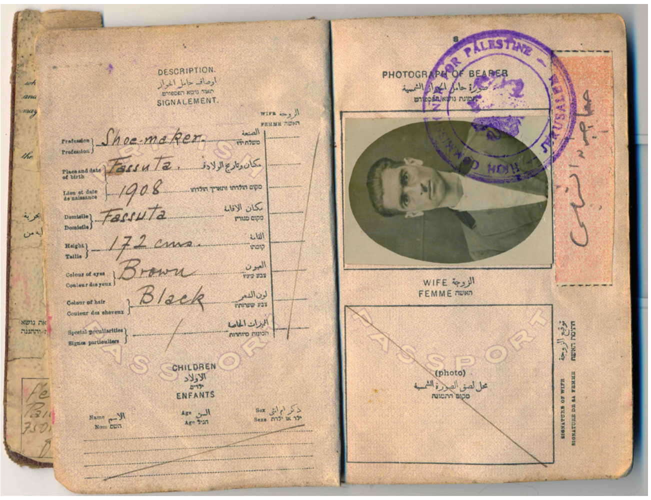

المستقبل. وربما كان عليّ أن أضيف هنا أن هذا ليس هو الرجل الذي وقعت إيلين بيطار في حبّه؛ لقد كان على الحب أن ينتظر حتى نهاية الثلاثينيات.

توقيع والدي، بخط يده، كان باللغة العربية، باللغة الفلسطينية العربية، خلافاً لختم السير ووكوب الذي يحمل صورة طبق الأصل من الحروف الإنجليزية المرتاحة المعلقة التي تكوَّن منها توقيعه، في أدائه لسلطته المطلقة. ولو كان في إمكاني أن "أشحط" فالتر بنيامين إلى هذا السجال لقلت إن توقيع والدي، خلافاً لتوقيع المندوب السامي، يحمل تلك "الهالة"، أي "الأورا"، التي يتمتع بها الأصل في عصر الاستنساخ الصناعي الإمبراطوري، وإن توقيع والدي يعلن بما لا يقبل الجدل حضوراً أصلياً لأنه يتكلم لغة الأرض التي اعتبرها والدي وطنه، وإن توقيع والدي يعبّر بالبيان الواضح عن حضور لغوي، وعن اسم علم عصيّ على التزوير، على الرغم من غياب "الباراف"، أي تلك الخطوط الأنيقة التي يُختم بها التوقيع منعاً للتزوير ـ اسم علم، كما يذهب دريدا، تستحيل ترجمته إلى أي لغة.

كان والدي فخوراً بكونه ـ خلافاً لكثيرين من أبناء جيله في القرية ـ يستطيع أن يوقّع اسمه، أن ينطق نفسه حبراً لا يقبل المحو، ريشةً على ورق. وُلد في سنة ١٩٠٨، وقد أوشكت السلطنة العثمانية على الأفول، فقضى طفولته تحت ظل المجاعة الأسود خلال الحرب العالمية الأولى. وكان والده جبران ترك زوجته عليا وأولاده الستة عشية الحرب وسافر إلى بلاد الأرجنتين البعيدة، حيث اختفت آثاره طوال ما يقرب من ١٠ أعوام. والقرية في ذلك الزمان كان فيها مدرسة يديرها معلم واحد يتقاضى من الطلاب أجراً معلوماً، فاستطاع أبي، على الرغم من المصاعب كلها، أن يكمل الصف الرابع الابتدائي وقد أوشكت جدتي على الإفلاس، عدا أن الحياة في أعوام البؤس تلك كانت تفرض عليها الإنفاق على أشياء أهم من العلم. واستطاع أبي في سنوات لاحقة أن يتقن

المنارة للاستشارات
www.mana

بعض الفرنسية، بمساعدة أمي اللبنانية؛ وفي سنين لاحقة أُخرى، وبمساعدة ـ أو على الرغم من ـ الإمبراطورية الصاعدة التي خلفت التاج، استطاع أن يتعلم العبرية بشكل عصامي، لكن تلك حكاية أُخرى.

أمّا الآن، في تشرين الأول / أكتوبر ١٩٣٢، فهو يوقّع اسمه باللغة العربية. والده جبران كان قد مات في مطلع تلك السنة، وهو الآن يضيف اسم والده إلى توقيعه، كنوع من التكريم، كنوع من الاسم الأوسط (جاك دريدا كان يفضّل لو أن والدي اكتفى بحرف الجيم بمفرده)، مضيفاً "الـ" التعريف إلى اسم العائلة، كعادة أبناء جيله؛ حنا جبران الشمّاس ـ زيادة في التعريف ومنعاً للشكوك في شأن الهويّة المحفورة على غلاف هذه الوثيقة.

السير آرثر غرنفلد ووكوب، خلافاً لوالدي، يُسقط اسمه الأوسط من توقيعه، علامة الثقة القصوى بالنفس، فالإمبراطورية في نهاية المطاف ليست بحاجة إلى اسمها الأوسط حين تعلن ثوابتها. وفوق ذلك، فإن السير ووكوب كان قد درس في "ربتون سكول"، في ديربيشاير في إنجلترا، وهذه المدرسة كما يقال من أعرق مدارس الإمبراطورية، إذ إنها تفتخر بتاريخ متواصل من التدريس لم ينقطع منذ سنة ١٥٥٧.

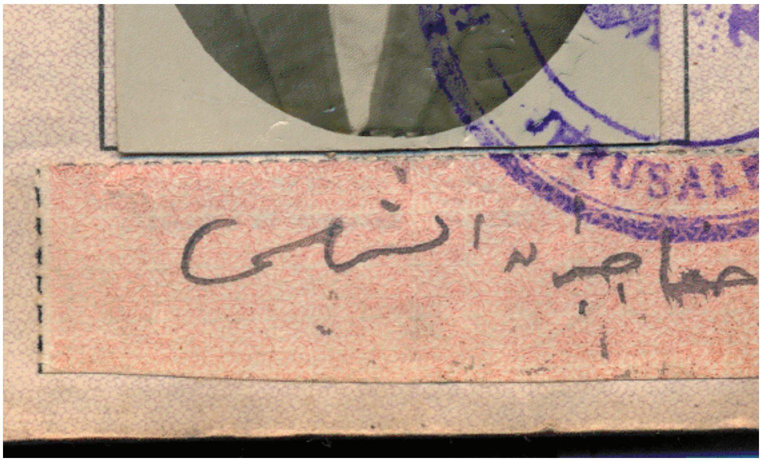

آرثر الشاب خدم التاج في الهند من سنة ١٩٠٣ إلى سنة ١٩١٤، وحين بدأت الحرب استُدعي إلى أوروبا حيث حارب على الأراضي الفرنسية. وفي سنة ١٩١٦، حين كان جدي جبران في مكان مجهول في الأرجنتين، وجدتي عليا تصارع أشباح الجوع، وحنا الصغير في الثامنة من عمره، أُرسلت كتيبة آرثر إلى العراق، وسيمر ١٦ عاماً قبل أن يزخرف آرثر بتوقيعه الملكي جواز سفر والدي.

يقول لنا أوروبي آخر بالغ الثقافة إلى حدّ الإعجاز اسمه جاك دريدا: "من حيث التعريف، فالتوقيع المخطوط يعني اللاحضور الفعلي أو العملي لصاحب التوقيع. وربما جاز القول إن التوقيع المخطوط يشهد على، ويحتفظ بكون صاحب التوقيع كان حاضراً في حاضر قد مضى، وسيبقى حاضراً مستقبلياً، وعليه فهو في حاضر ما على وجه العموم، في شكل للحاضر هو ما وراء الخبرة البشرية التي للآنيّة الدائمة، أي الـ maintenance ... وكي يكون التوقيع ذا فعّالية، أي كي يكون واضحاً ومقروءاً، عليه أن يكون ذا شكل قابل للإعادة والتكرار والتقليد [من قبل صاحبه]؛ وعليه أن يستطيع عزل نفسه عن النيّة المميزة والدائمة الحضور التي رافقت تنفيذه."

وعلى الرغم من احترامي الشديد لـ "ربتون سكول"، فإنني لا أدري ما إذا كان السير آرثر على

المنارة للاستشارات
www.mana

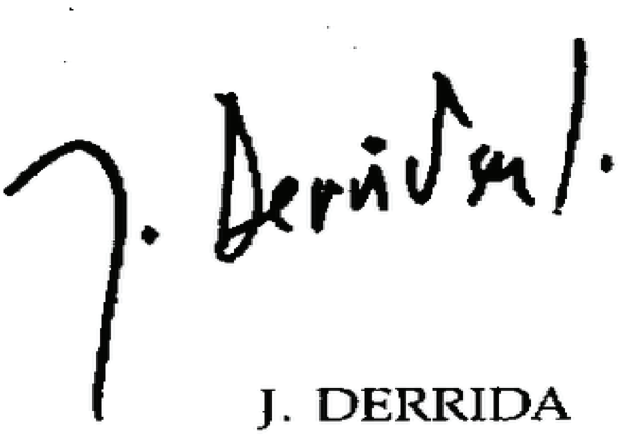

علم بجميع هذه الدقائق والفذلكات الدريدائية، لكننا نستطيع أن نفترض بكل تأكيد أن السير آرثر لم يكن حاضراً حين دمغ ختمُه جوازَ سفر أبي. فوالد اللوغوس، أي والد الكلمة، إذا استعرنا تعبيراً آخر لدريدا، لم يكن حاضراً حين مهرت "الكلمة" التي للتاج، والمتجسدة فيه، جوازَ السفر، لأن حضوره الفعلي لم يكن ضرورياً، إذ إن "لاحضوره" كان بانوبتيكياً كما يقول فوكو، كان شامل الرؤية: حضوراً يستطيع أن يرى دون أن يُرى؛ حضوراً يجب ألاّ يكون حتى موجوداً كي يُرى. فالآنيّة الدائمة يوحي بها توقيعُه، أي أن وجود فلسطين في الحاضر كان وجوداً غير منوط بخبرة بشرية كي يكون معروفاً ومسلّماً به؛ وأن تكون فلسطينياً، بالنسبة إلى حامل الجواز، كان يعني ميثاقاً موعوداً ومكفولاً وممهوراً بتوقيع لا تراجع عنه.

لكن وفقاً لقانون الجنسية البريطاني، British Law of Nationality–١٩٢٥، وبما أن فلسطين كانت تحت الانتداب ولم تكن دولة مستقلة ذات سيادة، فإن المدعو حنا جبران الشمّاس هو فلسطيني من حيث المواطنة (citizenship)، لكن جنسيته (nationality) عربية، الأمر الذي يعني، نظرياً وعملياً، أنه حين تصبح فلسطين دولة ذات سيادة، فإنه (الشمّاس) سيصبح فلسطينياً من حيث الجنسية. وهذا طبعاً لم يحدث (ويقال لنا في بعض الأحيان إنه لن يحدث)، فقد انتهى الأمر بحنا الشمّاس أن أصبح، على الرغم منه، "مواطناً" في دولة إسرائيل التي ستواصل تعريفه، وفق القانون الانتدابي، كعربي من حيث الجنسية.

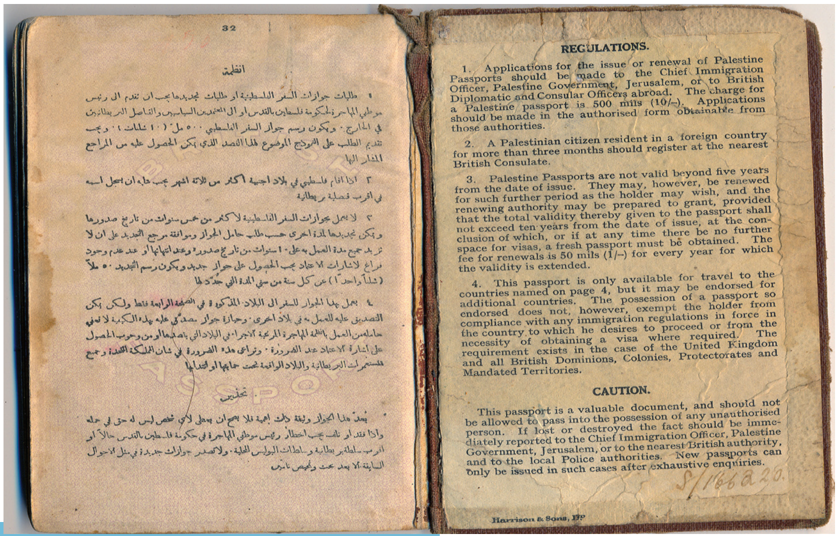

REGULATIONS.

1. Applications for the issue or renewal of Palestine Passports should be made to the Chief Immigration Officer, Palestine Government, Jerusalem, or to British Diplomatic and Consular Officers abroad. The charge for a Palestine passport is 500 mils (10/–). Applications should be made in the authorised form obtainable from those authorities.

2. A Palestinian citizen resident in a foreign country for more than three months should register at the nearest British Consulate.

3. Palestine Passports are not valid beyond five years from the date of issue. They may, however, be renewed for such further period as the holder may wish, and the renewing authority may be prepared to grant, provided that the total validity thereby given to the passport shall not exceed ten years from the date of issue, at the conclusion of which, or if at any time there be no further space for visas, a fresh passport must be obtained. The fee for renewals is 50 mils (1/–) for every year for which the validity is extended.

4. This passport is only available for travel to the countries named on page 4, but it may be endorsed for additional countries. The possession of a passport so endorsed does not, however, exempt the holder from compliance with any immigration regulations in force in the country to which he desires to proceed or from the necessity of obtaining a visa where required. The requirement exists in the case of the United Kingdom and all British Dominions, Colonies, Protectorates and Mandated Territories.

CAUTION.

This passport is a valuable document, and should not be allowed to pass into the possession of any unauthorised person. If lost or destroyed the fact should be immediately reported to the Chief Immigration Officer, Palestine Government, Jerusalem, or to the nearest British authority, and to the local Police authorities. New passports can only be issued in such cases after exhaustive enquiries.

S/16620.

Harrison & Sons, Ltd.

فدولة إسرائيل حتى هذه الساعة تواصل تعريف مواطنيها كيهود وعرب (ودروز) من حيث الجنسية. بكلمات أُخرى ـ ليس هناك إسرائيليون في إسرائيل، لكن تلك قد تكون حكاية أُخرى.

إلاّ إن والدي كان يستطيع أن يقول إن في حيازته وثيقة

المنارة للاستشارات
www.mana

ملزِمة قانونياً، مع أن ما تقوله الأحرف الصغيرة فيها غير واضح له تماماً، لكن أمراً آخر كان في غاية الوضوح: إنه كان يحمل وثيقة سفر تحمل اسم فلسطين، في ضرب من "الآنيّة الدائمة... غير المنوطة بالخبرة البشرية"؛ كان في إمكانه أن يترك فلسطين، ثم يعود إليها كالعائد إلى سياقه الطبيعي. وما عدا ذلك كله كان سيسقط في حكم الترهات.

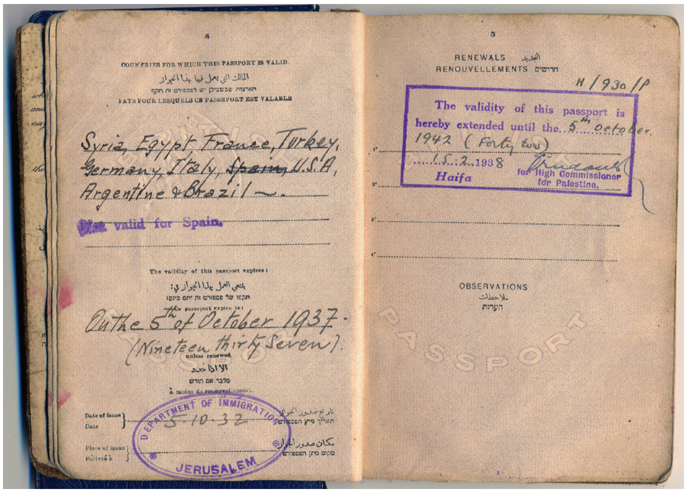

الآن، وفقاً للنظام الرابع من الأنظمة المثبتة في الصفحة الأخيرة من جواز السفر. "يُعمل بهذا الجواز للسفر إلى البلاد المذكورة في الصفحة الرابعة فقط ولكن يمكن التصديق عليه للعمل به في بلاد أُخرى..."

بين تشرين الأول / أكتوبر ١٩٣٢ وتشرين الأول / أكتوبر ١٩٣٧ كان في استطاعة والدي أن يسافر، لو أراد ذلك، إلى سورية ومصر وفرنسا وتركيا وألمانيا وإيطاليا والولايات المتحدة والأرجنتين والبرازيل. لكن الجواز لم يسمح له بالسفر إلى إسبانيا، ليس لأن العرب يحنّون دائماً إلى الرجوع غير المشروع إلى الأندلس. فوالدي لم يكن ينوي السفر إلى أي من هذه الدول بما فيها إسبانيا، فجورج أورول لم يكن من أصدقائه، وكل الذي أراده هو السفر إلى زحلة، في لبنان، لرؤية أبناء عمته.

ووفقاً لأختام المغادرة على صفحات إشارات الاعتماد في الجواز فإنه انتظر ثلاثة أعوام، حتى تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٣٥، قبل أن ينفّذ مبتغاه. هذا من الوجهة القانونية، لكنه في الواقع لم يكن بحاجة إلى جواز سفر كي يعبر الحدود إلى لبنان التي كانت، ولا تزال، على قاب قوسين فلسطينيِّين أو أدنى من فسّوطة، بدلاً من الذهاب غرباً حتى نقطة الحدود في الناقورة

المنارة للاستشارات
www.mana

الساحلية.

لعله قد فعل ذلك ما دام ذهب لزيارة أصدقائه المقيمين في القرى القريبة من الجنوب اللبناني، ولم ينو الذهاب إلى بيروت حيث كانت ستلتقطه أعين الجندرمة الفرنسية المفتوحة دائماً لحراسة المستعمرات من خطر المتسللين.

في سنة ١٩٣٨ تبدأ حكاية مختلفة. فهو الآن واقع في حبّ صبية لبنانية، يلاحقها من مدينة إلى مدينة ـ من صور إلى بيروت ثم إلى البترون في شمال لبنان، محاولاً إقناع عائلتها بأن الزواج بفلسطيني يعيش في قرية مغمورة في شمال فلسطين لم يسمع بها أحد ليس بالفاجعة الكبرى. وكانت الثورة العربية ضد التاج وضد الهجرة اليهودية إلى فلسطين، جعلت عبور الحدود اللبنانية بصورة غير قانونية من الأمور غير الآمنة على الإطلاق.

هذه صورة حنا العاشق، صورة التُقطت في بيروت نحو نهاية الثلاثينيات، وأرجح الظن أنها الصورة التي كان والدي، قبل موته في سنة ١٩٧٨، يودّ أن نتذكره بها.

فهو يبدو الآن فلسطينياً مختلفاً تماماً عن الفلسطيني الذي في جواز السفر، من حيث أنه يفرض على الناظر أن يعترف بحضوره.

وهذه هي إشارة الاعتماد الأخيرة في الجوان، تعود إلى أيار / مايو ١٩٣٨. بعد ذلك ربما يكون والدي إمّا فقد صبر الانتظار الذي يتطلبه تقديم الطلب في الحصول على تأشيرة دخول إلى لبنان، فعبر الحدود تهريباً، وإمّا أنه لم يكن في حاجة إلى الذهاب إلى لبنان، فإيلين بيطار كانت قد عادت إلى فسوطة، كمدرّسة شابة في المدرسة الابتدائية. بعد ذلك بعشرة أعوام سيفقد الجواز القابع في الخزانة من دون استعمال صلاحيته القانونية.

عائلة بيطار تذعن في النهاية وتستسلم في وجه العاشق الذي لا يعرف الكلل، وتصبح هذه الصبية الواقفة في الوسط، متشحة بالسواد حداداً على قريب عزيز، زوجة حنا الشمّاس في كانون الثاني / يناير ١٩٤٠. يُعقد القران في البترون، في شمال لبنان، في كنيسة مارونية، مع أن العروسين كليهما كانا من أتباع المذهب الكاثوليكي، ذلك لأن كاهن الكنيسة الكاثوليكية في بيروت، على ذمّة الراوي، قال

المنارة للاستشارات
www.mana

لهما من دوان مواربة إنه يرفض زواج صبية لبنانية من "مجرد فلاح فلسطيني". تلك كانت كلماته بحذافيرها، ويمكنكم أن تتصوروا أن الحرب الأهلية اللبنانية كانت تختبئ وراء الباب، وأن اندلاعها بعد ذلك بخمسة وثلاثين عاماً لم يكن إلاّ مسألة وقت.

في نيسان / أبريل ١٩٤٨، سقطت مدينة حيفا تحت احتلال شارات القوة والسلطة التي للإمبراطورية الجديدة، وبين ليلة وضحاها، كما يقول العرب، أخذت "فلسطين" جواز السفر بالأفول والاختفاء عن وجه الخريطة، وأخذت "فلسطين" الجواز تفقد الخريطة. كانت عائلتي قد انتقلت إلى حيفا من فسوطة قبل ذلك بعام واحد، في خطوة اعتُبرت في التاريخ العائلي فيما بعد غلطة مأساوية ارتكبها والدي. فقد كان يحاول الآن، في نيسان / أبريل ١٩٤٨، أقسى الأشهر الفلسطينية، وفي خضمّ الحرب على حيفا، وبعد أن أرسل بالعائلة إلى برّ الأمان النسبي في فسوطة، يحاول يائساً أن يجمع ويعيد إلصاق بعض الشظايا من حياته المحطمة.

جواز السفر الفلسطيني ـ البريطاني الذي كان في حيازته فقد صلاحيته في تشرين الأول / أكتوبر ١٩٤٢، لكنه الآن، في نيسان / أبريل ١٩٤٨، غدا حزمة من الأوراق التي فقدت كل دلالة. فوالدي لم يجدد الجواز لأن السفر إلى بيروت لم يعد ضرورياً بعد أن أصبحت إيلين البيروتية زوجته وأم أولاده، لكن الأمر مختلف الآن ـ فهو، في قرارة نفسه، يدرك تمام الإدراك أنه لن يحصل أبداً بعد اليوم على جواز سفر فلسطيني.

מפקדת ההגנה
חיפה.
השם ....
גר ב ....
משלח יד ....
תעודת זהות מס. ....
חפשי לעבור ב ....
תוקפו עד ....
תאריך ....
בפקודת

قيادة الهاغانا
حيفا
الاسم ....
محل الاقامة ....
صنعة ....
هوية رقم ....
يصرح له المروري ....
يعمل به لغاية ....
تاريخ ....../٤/١٩٤٨
بامر

كان الجواز قد منح والدي، بصورة أو بأُخرى، الحق في ترك هذه الخريطة وراءه، ثم العودة إليها بكل بساطة، من دون أن يقوم أحد بوضع هذا الحق موضع النقاش؛ حقّه في التنقل بين موضع وآخر من وإلى وطنه؛ حقّه في العودة؛ حقّه فيما يعرّفه هذا الجواز الذي فقد صلاحيته بـ "حرية المرور من غير توانٍ ومع تذليل كل صعوبة في سبيله وأن يبذل له كل ما يحتاج إليه من مساعدة ورعاية." وهذه

المنارة للاستشارات
www.mana

صورة كارتوغرافية للحيّز الصغير الذي كان ملكه المعنوي في الفضاء الشاسع الذي لفلسطين، الذي للوطن. هذه خريطة بريطانية، شبكة مُتسامتة عسكرية (grid)، قام برسمها طاقم تابع لهيئة مسح الأراضي الأسترالية في آب / أغسطس ١٩٤١. خريطة تصوّر دقائق التفصيلات للمنطقة التي تحيط بفسّوطة، بيَدٍ فيها كثير من الشغف، المنطقة التي يعرفها الفسوطيّون عن ظهر قلب، لأن ذلك هو ما تفعله حين تعيش على خيرات الأرض: تمنح الأسماء لقطع بعينها من الأرض التي تمنحك الحياة،

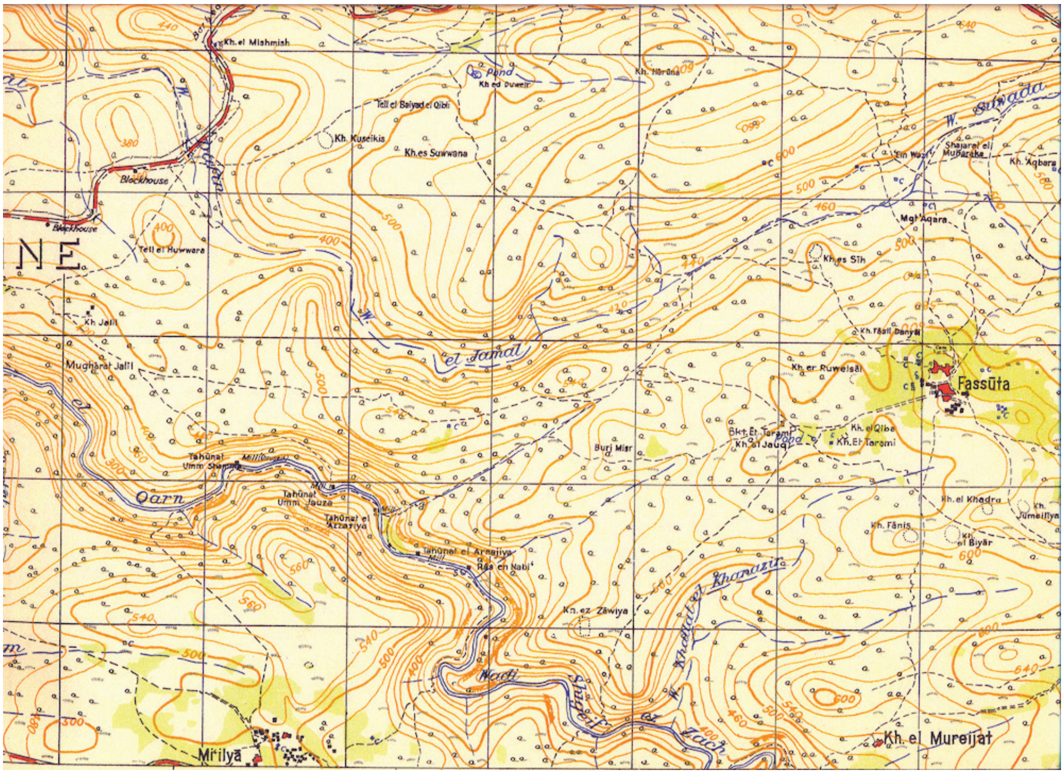

وتحفظ هذه الأسماء وتحفظ مواقعها، وتدوّت المسافات التي تفصل القطعة عن الأُخرى سيراً على الأقدام، والشبكةَ المتشعبة للطرقات والدروب والسبل الفرعية والالتفافية، ومواقعَ الآبار والعيون والينابيع والبرك. لأن ذاك هو الذي تفعله كإنسان قروي، سواء أكنت فلاحاً أم، كما كان والدي، حلاقاً وصانع أحذية.

لكنها شبكة متسامتة عسكرية في نهاية المطاف، لم يكن القصد منها منح رعايا التاج متعة النظر من الأعالي إلى منظر قريتهم، وإلى قطع الأرض التي تحيط بها: خلّة الصواني؛ خلّة المريجات؛ خلّة الزاوية... إلخ، وإنما كان القصد منها أن يكون في قدرة التاج في أي وقت من الأوقات أن يسيطر سيطرة كاملة على رعاياه وعلى الجغرافيا التي يوجدون فيها، وأن يحدد أماكن وأوقات وجودهم تسامتاً بعد تسامت، بدقة متناهية، كي يستطيع القبض عليهم في ذلك الفضاء الشاسع في أي وقت

المنارة للاستشارات
www.mana

يشاء. وحين ينسحب التاج من المشهد فإنه يمنح هذه الخريطة، لقمة سائغة، إلى السيد البانوبتيكي الجديد، سيد الأرض الجديد، شامل الرؤية.

وهذا ما يفعله السيد الجديد:

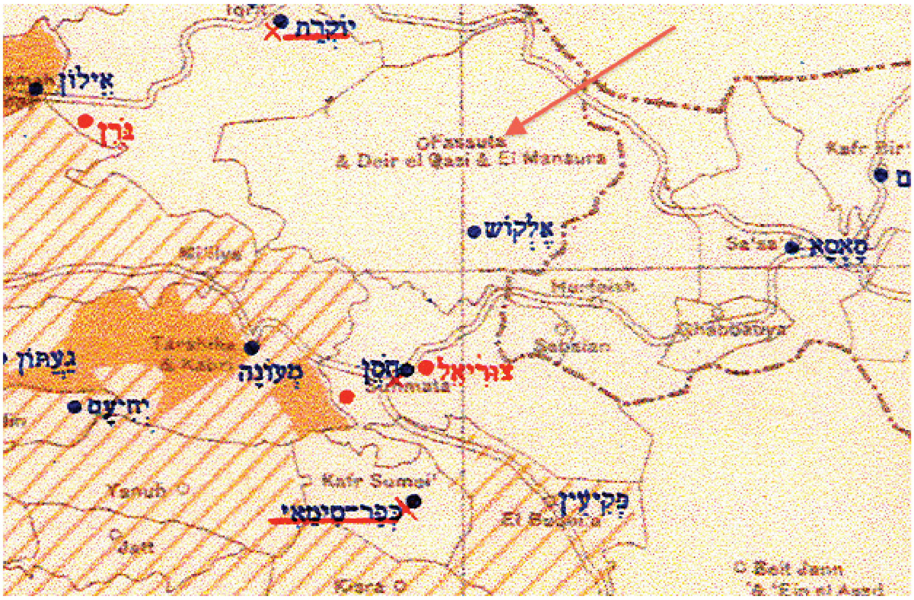

هذه خريطة للمنطقة نفسها في الجليل، "جَمَعتها ورسمتها وطبعتها هيئة مسح الأراضي في فلسطين، ١٩٤٦". وقد أُضيفت فوقها، بالأزرق، أسماء مستعمرات يهودية، في تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٤٩، ثم تبعتها، وهذه المرة بالأحمر، أسماء مستعمرات يهودية أُضيفت إلى الخريطة نفسها في تموز / يوليو ١٩٥٠، بأحرف عبرية فوق الأسماء العربية المنقحرة، أي المدوّنة بأحرف لاتينية.

"إيرتس يسرائيل" بالعبرية أضيفت بالأزرق فوق "فلسطين" بالإنجليزية. وها هو إذاً الكارتوغراف الجديد يستولي على الوطن، وفقاً للمنطق القائل إنك تستطيع أن تمتلك ما تستطيع أن تصوره كارتوغرافياً. القدر الفلسطيني، كما كان باشلار ليقول، أصبح له الآن غطاء لا يلائمه.

هذه هي الخريطة الجديدة للبلد، للجليل "الجديد". وعلى مدى ما يقارب العقدين بعد سنة ١٩٤٨، كان الفلسطينيون يحتاجون إلى تصاريح خاصة للتنقل بين قراهم، وبين تلك القرى وأقرب مدينة.

وتلك التصاريح كانت تُمنح فقط إذا قرر الحكم العسكري الذي كان يفرض سلطته على المواطنين الفلسطينيين في الدولة الجديدة، أن التحرك والسفر من مكان إلى آخر داخل الوطن، لا خطر فيه على أمن الدولة الجديدة؛ الوطن الذي غُيّب تحت هذا التراكب فوق الرَّقّ الممسوح الذي كان اسمه ذات يوم ـ فلسطين؛ الوطنِ الذي تحوّل بين عشية وضحاها إلى شتات.

فلسطين تخرج من الخريطة؛ إسرائيل تدخل الخريطة.

المنارة للاستشارات
www.mana

فلا حاجة إذاً بعد اليوم إلى جواز سفر لمعرفة هذا الأمر.

فما الذي تودّ، أو تستطيع هذه الصورة إذاً أن تقوله لنا؟

أرجح الظن أن أول ما يستحوذ على نظرتنا ليس الأحرف المذهّبة، المحفورة على قماش الغلاف البنّي الناصل الحائل، والتي غدت مجرد أثر إمبراطوري. الكلمات الإنجليزية على اليمين ـ British Passport فوق الشعار الملكي البريطاني ـ Dieu et Mon Droit وكلمة Palestine تحته؛ الكلمات العربية "جواز السفر" و"حكومة فلسطين"، وما يقابلها باللغة العبرية تحت الكلمات العربية، يوم كانت اللغتان على علاقة مختلفة من القوى غير المتكافئة: "פספורט" و "ממשלת פלשתינה (א"י)". هذه الكلمات جميعاً، هذه الدالّات المذهّبة، أصبحت فارغة من مدلولاتها: فالشعار الملكي، Dieu et Mon Droit. "الله وحقّي"، والذي أقره هنري الخامس في مطلع القرن

المنارة للاستشارات
www.mana

الخامس عشر، شعار الإمبراطورية والقوة، تحوّل إلى أغنية تهكمية لرينغو ستار، طبّال "الخنافس" (الـ "بيتلز") في سنة ١٩٧٣. Duit On Mon Dei، أي "افعلها نهار الاثنين"؛ و"فلسطين"، بالمعنى الذي قصده ـ أو هكذا يتخيل المرء ـ أولاء الذين كانوا قد أصدروا جواز السفر، وبالمعنى الذي كان يقصده حامل الجواز للسفر من مكان إلى مكان، فلسطين تلك لم تعد هناك، شأن "حكومت"ها.

أول الأشياء التي تستحوذ على النظرة إذاً، هو قطعة الشاش هذا الذي "رقّ حتى قلته نفدا"، قطعة القماش التي أوشكت على الاختفاء شفافيةً، وهي ما زالت تحاول، على حافة الصمت أو تكاد، أن تُمسك بشقّي الغلاف المتفكك، فظهر الجواز هذا، أو "عموده الفقري" وفقاً للتعبير الإنجليزي، والذي كان فيما مضى بالغ التماسك والإحكام، جديراً بتسميته، جامعاً معاً، وكما يجب، صفحات الجواز الاثنتين

المنارة للاستشارات
www.mana

والثلاثين، لاصقاً الدالّ إلى مدلوله من دون فكاك ـ هذا العمود الفقري أصبح الآن بالياً ناصلاً، أهشّ من أن يستطيع أن يجمع معاً ما كان ذات يوم وثيقة للسفر، ما كان ذات يوم إثباتاً لهوية وتجسيداً لتوقيع.

جواز السفر الفلسطيني رقم ٥٤٨٥٦ يبادلنا الآن النظر، بحشرجة غير مسموعة، معيداً على مسامعنا جملة شهيرة من عهد ما بعد الكولونيالية، بَلِيت هي الأُخرى من كثرة الاقتباس وكثرة الاستعمال ـ "تتهاوى الأشياء وتتفكك؛ فالمركز لم يعد يقوى على الصمود
("Things fall apart; the center cannot hold").
جملة أصبحت من الرواسم، أي الكليشيهات؛ جملة جوفاء. كالخريطة. كالجواز.

كل ما تبتغيه الآن قطعة الشاش الناصلة هذه، وقد خلدت للصمت، هو أن تُترك وشأنها، أن تكون ذاتها فقط، خرقة أُخرى من الشاش المرهق الواهن، ننظر من خلاله نحو فلسطين التي، متفككةً، تغادر الخريطة، ثم نعيد جواز السفر إلى علبته، ونعيد العلبة إلى مكانها، ونمضي في طريقنا، باحثين عن استعارة أُخرى. ■

المنارة للاستشارات
www.mana